مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع JALHSS
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences – JALHSS
www.jalhss.com ISSN:2414 – 3383
العدد (18) كانون الاول - ديسمبر 2017

المحذورات الفكرية في الشعر العراقي الحديث
(قراءة في الأمن الثقافي)

الدكتور خالد حوير الشمس
كلية الآداب - جامعة ذي قار
ذي قار - العراق

الخلاصة

الفرضية التي يقوم عليها البحث أن الشعر العراقي المعاصر يتضمن أفكارا تشكل خطرا على قارئها، إذ تأثر كُتَّابه في الآونة الاخيرة ببعض الأفكار التي تبتعد عن الطريق القويم، والقرآن الكريم، والسنة النبوية، وفكر أهل البيت. أو بتعبير جامع ابتعدت عن معوَل الحق، وهنا يتجلى خرق الهُويَّة الثقافية القائمة على بناء الإسلام الأصيل. فنهض البحث بهدف يتمثل برصد تلك الأفكار الإلحادية، أو ما يتعلق بها من قريب أو بعيد، فضلا عن كل القيم الفكرية المذمومة، ثم مسوغات الإتيان بها من لدن الشاعر كأن يكون إيمانا منه بتلك المحذورات التي يراها عقيدة له، أو استشهادا بها، ناهيك عن الأسلوب المنتهج في عَرْضها النصي بوصفه وسيلة إقناع، ومنهج حجاج. ويعد ما يقدم من قبيل القراءة الثقافية التي تحرص على أمنية النص أو ما يسمى بـ(الأمن الثقافي) المنضوي في الدراسة الثقافية للنص، وليس في النقد الثقافي القائم على القبحيات والضمنيات؛ ولحداثة هذا المفهوم رغب الباحث ببيان مفهومه، ووجوده في القرآن الكريم، وفكر أهل البيت عليهم السلام، وإرهاصاته في المدونة العربية الفكرية من جهة كتب التفسير، وكتب الأصول، وكتب اللغة، وكتب النقد، مع التأكيد على اختلاف طريقة التناول فيما بينهم، وعَرْض مقولات العرب على تنوع المعارف في عدم السماح بالانحدار الثقافي، والتدني الفكري في العقل العربي، وفي النص بأنواعه المتعددة، كل ذلك جاء في المبحث الأول. ويعتني المبحث الثاني بصور المحذورات الفكرية في البيئة الشعرية المنتخبة. ثم طرائق السياسة اللسانية المتبعة من لدن أولئك الشعراء في تسويق أفكارهم. وتناول المبحث الثالث الأسباب التي قادت إلى بروز تلك الأفكار، والنتائج المترتبة عليها، وطرائق المعالجة لها.

المقدمة

الحمد لله حمدا كما يستحقه، والشكر له على نعمه، والآئه، إذ هدانا للتفكير، والتنقيب، والبحث، والكتابة، وليس الأمر عند ذلك الحد، بل أجزل علينا عطاءه، ووهبنا أداة لذلك التفكير، ولتلك الكتابة، فله الحمد، والمنة، والثناء على ما أعطى، وأجزل، ووهب.

هنالك اعتبارات تتحكم في منظومات الأفراد، ففي حدود اعتباراتي الشخصية أرى أن ترتيب المؤثرات المرجعية للثقافة أو للفرد يكون على التسلسل الآتي: الله بقرآنه الكريم، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحديثه الشريف أو حديثه القدسي بعيدا عن مدى إشكالياته، وأهل البيت -عليهم السلام- بخطابهم الموسوعي، والعقلاء أو العلماء من تابعي النهج الثلاثي السابق مع الإيمان بالمفارقة بين الوجود الإلهي، والوجود النبوي، أو الإمامي، وانطلاقا من دائرة التكامل في حدود النص القرآني، والنبوة، والإمامة، والاجتهاد العلمائي.

ومن ثمَّ يأتي المؤثر الخامس وهو الشاعر في قصيدته، فستنجلي هنا فرضية مفادها أن الشعر له أثر في صناعة العقل. فيتحرك البحث منطلقا من مشكلة واضحة للقارئ الشعري، متمثلة بشيوع تمرد نص الشاعر أو أحيانا تمرد ذاته الشعرية، ذلك التمرد الذي يؤنسن الباري، ويزيل قدسيته عنه، أو الذي يتعامل مع النبي كشخص عادي، فجاءت أبياتهم الشعرية تفيض بالقدح بالله تعالى، وبنبيه، وبعض المقدسات الأُخر، فضلا عن شيوع الايروسي في أشعارهم.

لذا يهدف البحث إلى الوقوف عند تلك الصور الزائغة، ومدى تسويقها عبر التكنيك اللساني، ومن البدهي المرور على مسبباتها في الشعر وصولا إلى طرائق العلاج أو التقليل منها.

سار البحث على خطة ذات صفة متنوعة بين الفكر، والنقد، واللغة، بثلاثة مباحث. عنوان المبحث الأول: (الأمن الثقافي المفهوم والانتشار)، أي مساحة توافره على المنظومة الثقافية المتراجعة في القدم لاسيما أنه مصطلح حديث الظهور بظهور العولمة في نهايات القرن المنصرم تقريبا.

والمبحث الثاني بعنوان :(تجليات المحذور الفكري في الشعر العراقي)، أي تلمس ما يعد انخراطة فكرية ابتعدت عن جادة التفكير السليم بتنوع الحقل الفكري أو المعرفي.

ويأتي المبحث الثالث بعنوان: (الحضور النقدي الفاعل) بعد استجلاء مسببات توافر تلك المسارات التي يتحفظ عليها البحث ثم القيام بدعوة الحضور النقدي على مستويين نقديين.

وفي سياق المقدمة أود بيان الآتي:

1- إن ما يقوله الباحث قابل للرد والقبول؛ خاضع لمعيار القراءة التأويلية، وليس منضويا في باب التكفير لأحد الشعراء، أو التفسيق لهم، وإنما هنالك شعراء أوحت نصوصهم، بل دلّت بصريح اللفظ والمدلول، ولعل هذه الدلالة مشروعة عند القارئ الآيزري أو الدريدي، وقد يحرم القارئ البدائي من تلك التأويلات، لذا ينبغي الحفاظ على كيان المتلقي المبتدئ أو البسيط.
2- إن النصوص الزائغة فكريا لاسيما الالحادية منها نصوص ذات لغة مجازية، فيصعب تفسيرها، وتأويلها؛ لذا حرصت كل الحرص على أن أنتقي نصوصا صريحة.
3- تشي بعض نصوص الشعراء بالانحراف مرة وبالاستقامة مرة أخرى، وهذا ما جعل الباحث يشعر بصعوبة عند التحليل.
4- من المهم معرفة سبب اختيار الشعر العراقي من دون غيره! فغير خاف تأثر الشعر في المدة الأخيرة لاسيما بعد سيل الحرية والديمقراطية المغلوطتين بعد 2003، وانتشار صور الحرية الفكرية في عراقنا الحبيب بعد زوال زوبعة الظلام التي جثت على عيونه طوال تلك الحقبة، فضلا عن التأسيس الأول لهذه المحذورات لدى الأجيال التي آمنت بالانفتاح، وذات التحولات الفكرية، مثل السياب، والجواهري.

5- لم يحص الباحث الشعر العراقي كله...وانما اعتمد على مجموعة شعراء محدثين، ومنهم نازك الملائكة، بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي، حسين مردان، موفق محمد، نصيف الناصري، مظفر النواب، سعدي يوسف، سركون بولص.

6- وتقتضي الأمانة العلمية أن أشير إلى أني اعتمدت على بعض الأمثلة التي سجلها الدكتور صدام فهد الأسدي في بحثه المعنون: التوصيف الالحادي والمساس في المعتقدات الدينية عند الشعراء العرب في العصر الحديث . المنشور في مجلة آداب ذي قار 2012م.

الله الموفق وهو المبتغى في هذا البحث.

المبحث الأول

الأمن الثقافي المفهوم والانتشار

في حدود التفكير المصطلحي المركب وطريقة التعريف به، يلجأ الدراسون إلى عزل المصطلحين، والوقوف عندهما لغويا، ومن ثَمَّ دمجهما، والخروج بمقاربة تنبثق من هذين المفهومين بناء على وجود توافق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي. وهذا ما سأقوم به جريا على المألوف، فتصنف لفظة الأمن على أنها مصدر يدل في أصله على : ((طمأنينة النفس وزوال الخوف))[1]. وقد وظف هذا المدلول المناقض للخوف في التعريف له، فيقول هنري ألفريد كسنجر[2] فيه : ((أي تصرفات يسعى المجتمع عن طريقها إلى حفظ حقه في البقاء))[3]. ولاشك أن هذا التحوط الأمني، والتحفظ، والبحث عن الديمومة، والبقاء المنسوب إلى المجتمع بحسب كلام هنري، يحمل في طياته مسكوتا عنه يتضمن إشراك الفرد والمجتمع في هذه الحلبة، وهذا مما دعا المعنيين إلى تقسيم الأمن على مستويات[4]:

1- أمن الفرد: الخطوات التي تحفظ حياة الفرد، وتزيل الخطر الذي يهدد وجوده، ويسعى لاقتطاف ممتلكاته، وضياع أسرته، وخطوات الرفاه، والسعادة.

2- أمن الدولة: أي مجابهة الأخطار المحيطة بها، أو المتضمنة في هيكليتها الداخلية، وقد يصطلح عليهما أمن الوطن، الذي يتسع ويأخذ حيزا واسعا، فيشمل القيم الوطنية، والاقتصاد، والعوامل الثقافية، والعرقية، والاجتماعية، وسلامة السكان[5].

3- أمن المجموعة أو المجتمع: أي تأمينها، وتحصينها من الأخطار التي تتماس مع هُويَّة هذه المجموعة وثقافتها، ومعتقداتها. وانطلاقا من هذه الحيثية الثالثة يمكن تنميط الأمن المجتمعي إلى نمطين: الأمن الهوياتي، والأمن الثقافي، وقد يتداخل هذان النمطان فيما بينهما ويشتد التداخل حين تتكفل الثقافة بصناعة الهُويَّة، وسنرى لاحقا كيفية مسخ الهُويَّة عن طريق تلك الثقافة المنتشرة في الشعر العراقي.

---

1 مفردات ألفاظ القرآن (الراغب الأصفهاني): 90، مادة (أمن).

2 باحث سياسي أمريكي، وسياسي ألماني النشأة، ولد وسمي هاينز ألفريد كسنجر، كان أبوه معلماً، وبسبب أصله اليهودي هرب هو وأهله في عام 1938 من ألمانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية خوفاً من النازيين الألمان. التحق بمعهد جورج واشنطن في نيويورك. حصل على الجنسية الأميركية عام 1948 والتحق بالجيش في نفس العام. شغل منصب وزير الخارجية الأمريكية من 1973 إلى 1977 في عهد الرئيس جيرالد فورد، وكان، قَبْلاً، مستشارَ الأمن القومي في حكومة الرئيس ريتشارد نيكسون. لعب دوراً بارزاً في السياسة الخارجية للولايات المتحدة مثل سياسة الانفتاح على الصين وزياراته المكوكية بين العرب وإسرائيل والتي انتهت باتفاقية كامب ديفيد عام 1978. عيّنه الرئيس رونالد ريغان في عام 1983 رئيساً للهيئة الفيدرالية التي تم تشكيلها لتطوير السياسة الأميركية تجاه أميركا الوسطى. وأخيراً قام الرئيس جورج بوش (الابن) بتعيينه رئيساً للجنة المسؤولة عن التحقيق في أسباب هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001. ينظر: الموسوعة الحرة ويكيبديا.

3 الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي (صفية نزاري): 36، رسالة ماجستير .

4 ينظر: الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي: 49.

5 ينظر: الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي: 42.

الثقافة في مفهومها تقترب من مفهوم آخر وهو مفهوم الحضارة؛ إذ ينتمي المفهومان إلى حقل دلالي واحد، يميزهما التقدم الفردي في الثقافة، والتقدم الجماعي في الحضارة[6]. ويعرف ذلك التقدم الفردي بأنه ((جميع الصفات المكتسبة في المجتمع، كالحقائق، والفنون، وأنواع التقدم الفكري، والبناء القيمي))[7]، ويدخل في ذلك الكل المكتسب: العقائد، والقانون، والعادات الاجتماعية، والمعارف، والفن، وغير ذلك[8] مما يدخل في هُويَّة المجتمع، وبذلك ستكون الحصيلة النهائية من مفردتي الأمن والثقافة هي عبارة موجزة (الحفاظ على هُويَّة المجتمع)، وإن كنت متعجلا في إدراج هذا التعريف الاجرائي للأمن الثقافي، الذي اتسع مفهومه، وتعددت جوانبه؛ لكونه ينفتح على آفاق عدة، وهذا الاتساع يضفي عليه غموضا، وتشعبا، وتعقيدا، وما يخصص مفهومه بصورة أدق كونه ظهر ردة فعل على العولمة في تسعينيات القرن الماضي حتى قيل: إن العولمة، والثقافة متلازمان تلازما لا يقبل الانفكاك[9]، ويذهب محمود النجيري إلى أبعد من ذلك في ظهور هذا المصطلح؛ إذ رجع به إلى سبعينيات القرن الماضي، حتى عقد عام 1973 مؤتمر تحت عنوان الأمن الثقافي على مستوى وزراء الثقافة العرب في المنظمة العربية للتربية، والثقافة، والعلوم[10]. وهذا التلازم بين الثقافة والعولمة أو بين الثقافة والتحديث في حقيقة الحال يجعل مفهوم الأمن الثقافي متخصصا أو منحصرا في إطار الثقافة الوافدة أو الدخيلة، فقيل في تعريفه: ((ونعني بالأمن الثقافي الحفاظ على المكونات الثقافية الأصيلة في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة أو الأجنبية المشبوهة، وهو بهذا المعنى حماية، وتحصين للهُويَّة الثقافية من الاختراق والاحتواء من الخارج))[11]، وقد ينفتح مفهومه على أكثر من ذلك انطلاقا من العمومية والشمول، أو بتعبير آخر انطلاقا من معيار الانحراف الخارجي والداخلي في الثقافة فـ((يعني الأمن الثقافي حماية المؤسسات والأدوات الثقافية من الانحراف والارتفاع بها عن العجز والقصور، وتعزيز التوجهات السليمة وانتقاد التوجهات الشاذة والمتطرفة))[12].

وفي حدود وصف حيثيات الأمن الثقافي يتضح تداخله مع أنواع الأمن الأخر مثل الأمن الاقتصادي، أو الأمن الغذائي، أو الأمن القومي وغير ذلك. فضلا عن عنايته بتوفير الثقافة الصالحة للناس؛ ليتمكنوا عن طريقه العيش بسلام؛ ولكي يتحقق ذلك يرتكز الأمن الثقافي على عنصرين أساسيين:

الأول: الاعتزاز بالذات الثقافية الحضارية، فالذات الثقافية بمثابة الإطار المستوعِب لمنتوج المثقف.

الثاني: التلاقح مع الثقافات المعاصرة، فالثقافة عبارة عن عملية مستمرة تهيئ للناس الأرضية المتطورة آخذة من الموروث الثقافي، والانفتاح على بوتقة الثقافة المعاصرة[13].

ويمكن الجزم بأن ذلك الانحراف في المنظومة الثقافية المؤطر في العصر الحالي بإطار مصطلح (الأمن الثقافي) قد تمثل بردة الفعل في العقل العربي وإن ابتعد عن التأطير المصطلحي بحلته الجديدة وكما قيل لا مشاحة في المصطلحات، فكان في الفهم القرآني، ودرء الشبهات حوله، وفي اللغة، وفي النقد، وفي العقائد.

فمن تلك البواكير الأولى لخطوات الأمن الثقافي الحرصُ على نصاعة الفهم القرآني، وتنزيهه عن المطاعن، وقد ألفت فيه مؤلفات كثر أهمها كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) للقاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار ت 415هـ المعتزلي المذهب؛ إذ دعاه الحرص على الثقافة القرآنية، والتحرز من شيوع ظاهرة الزيغ في مفاهيم القرآن الكريم، وقد أشار القاضي المعتزلي في مقدمة كتابه إلى الغاية التي أُلف من أجلها، مما يتضح فيها البعد الأمني الثقافي على القرآن الكريم، وحمايته من التأويل الموهوم: ((وقد أملينا في ذلك كتابا يفصل بين المحكم

6 ينظر: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية (دنيس كوش): 19.
7 الانثربولوجيا الثقافية والاجتماعية (فاروق محمد العادلي): 12.
8 ينظر: التقرير العربي الثاني للتنمية الثقافية : 234.
9 ينظر: الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي: 51.
10 ينظر: الأمن الثقافي العربي التحديات وآفاق المستقبل (محمود النجيري): 15.
11 الأمن الثقافي العربي التحديات وآفاق المستقبل: 15.
12 الأمن الثقافي العربي التحديات وآفاق المستقبل: 15.
13 ينظر: الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي: 54- 55.

والمتشابه، عرضنا فيه سور القرآن على ترتيبها، وبينا معاني ما تشابه من آياتها مع بيان وجه خطأ فريق من الناس في تأويلها؛ ليكون النفع به أعظم ونسأل الله التوفيق للصواب إن شاء الله)) [14].

وقد أحس اللغويون بخطورة اللحن على اللسان العربي[15]، فأخذوا يزيلون ذلك اللحن، وذلك الفساد، وقاموا بتحوُّط لساني يدخل في باب الأمن اللساني، ولجأوا إلى جملة تأليفات معجمية مرسلة إلى العامة مرة وإلى الخاصة مرة أخرى، فكتب الكسائي ت189هـ ما تلحن فيه العامة، وكتب الحريري ت516هـ (درة الغوَّاص في أوهام الخواص)، ويذكر المغزى من كتابه، مما يُعرب فيه عن حس أمني تجاه لغة العرب، ولغة الأدباء الذين تسرَّب اللحن إليهم: ((فإني رأيت كثيرا ممن تسنموا أسنمة الرُّتب، وتوسموا بسِمة الأدب، قد ضاهوا العامة في بعض ما يفرُط من كلامهم، وترعف به مراعف أقلامهم، مما إذا عثر عليه، وأثر عن المعزوِّ إليه، خَفَض قَدر العِلية، ووَصم ذا الحِلية، فدعاني الأنف لنباهة أخطارهم، والكَلف بإطابة أخبارهم، إلى أن أدرأ عنهم الشُّبَه...))[16]

وقد التفت النقاد إلى وجود الفساد الفكري أو فساد العقيدة في الشعر العربي، وأخذ القاضي علي عبد العزيز الجرجاني ت392هـ بالتنويه به بقوله: ((وقوله:

وإذا نزعتَ إلى الغواية فليكن له ذاك النزع لا للناس

وانما هو نزع عن الشيء نزوعا، وأبيات كثيرة يضعف عذة في معظمها، وإن كان باب التأويل يتسع، ومذاهب الاحتيال في النحو لا تضيق))[17]. وذكر الجرجاني نماذج شعرية أخرى تعني الباري عز وجل.

وقبل هذه الخطوة النقدية وقف النبي صلى الله عليه وعلى اله وسلم موقف نقديا من الشعر السمج، وفرز الخيوط بينه وبين الشعر الذي ينتمي إلى باب الفضيلة، وكان موقفه موقف القرآن حين جعل الشعراء صالحين وغير صالحين[18] من جهة قولهم، ومقصدهم، وكذلك موضوع شعرهم اذ استثناهم بانهم آمنوا، وعملوا الصالحات، وأداموا الذكر لله تعالى.

ولقد مرت الثقافة الإسلامية بموجة تتمثل بالنيل من مرتكزاتها العقدية من جهة أصولها: العدل، والتوحيد، والنبوة، والإمامة، والمعاد، وبدأ الهدم لها، فضلا عن تسرب الثقافات الوافدة إلى بلاد المسلمين من بلاد الرومان والفرس، وانتشرت في المجتمع الإسلامي، ونجم الملاحدة، والأفكار الفاسدة، فضلا عن إظهار البدع اليهودية، والسخافات المسيحية، والأساطير المجوسية[19]، ورأى القائمون على الدين إنجاز علم الكلام في خضم تلك الظروف للقضاء على تلك الثقافات الوافدة التي تهدد أمن الإسلام، وتثير الشبهات حوله، يقول جعفر السبحاني عن هذه النشأة: ((ففي هذا الجو المشحون بالغزو الفكري من جانب الأعداء، وعدم تدرع المسلمين في مقابل هذه الشبهات والشكوك شعر المفكرون المخلصون من المسلمين بواجبهم، وهو الدفاع عن العقيدة الإسلامية بنفس الأصول التي يدين بها المخالفون، والطرق التي يسلكها المعادون))[20].

وقد انتشرت ظاهرة مجتمعية تقوم على الامتثال للثقافة المناوئة للعقيدة الإسلامية الحقة ذات الأصول القرآنية، وأدعت هذه الزوبعة المجتمعية الثقافية أن لا حكم إلا لله، إلا أن الغريب أنها لا قرآن اتبعت، ولا حق انتهجت، وإنما عبر عن حكمتهم الضالة إمامنا علي ع بكلمة حق أريد بها باطل، كونه شعر بالخطر الثقافي على المسلمين وعلى إسلامهم، كونهم خرجوا عن الثقافة الإسلامية، ويمكن تقسيم المجهود الأمني الثقافي تجاه تلك الانحرافات الثقافية العقدية في حكمة أهل البيت، وحكومتهم على اتجاهات: الاتجاه الأول اتجاه المناظرات. والاتجاه الثاني اتجاه الإجابات والرسائل. والاتجاه الثالث اتجاه التأليف.

---

14 تنزيه القرآن عن المطاعن: 7.
15 ربما ينظر إلى ظاهرة اللحن اللغوي نظرة تواصلية او تداولية، فيكون مبررا وجودها، لأنها تحقق الجنبة التواصلية في اللسان العربي.
16 درة الغواص في أوهام الخواص: 9.
17 الوساطة بين المتنبي وخصومه: 62.
18 ينظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني(الجرجاني): 28.
19 ينظر: الالهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل (حسن محمد مكي العاملي): 1/ تصدير الكتاب بقلم جعفر السبحاني. ص: د.
20 الالهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل: الصحيفة : د.

فمن الاتجاه الأول مناظرات ابن عباس ت69هـ للخوارج، اذ كان يرسله الإمام علي ع، ويناظرهم، ويلجمهم. ومنها مناظرات الإمام علي مع الأسقف، وأحد الرهبان، والجاثليق[21].

ومن الاتجاه الثاني رسالة الإمام علي الهادي ع إلى أحمد بن إسماعيل بن يقطين سنة 227هـ يعرض فيها لمسألة خلق القرآن: ((عصمنا الله وإياك..نحن نرى أن الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب....وليس الخالق إلا الله عز وجل، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسما من عندك،/ فتكون من الضالين))[22].

ومن الاتجاه الثالث تأليف كتاب التوحيد للإمام الصادق ع حين ما أملاه على المفضل بن عمر الجعفي الكوفي ت ق 2هـ، بعد ما عرض أبو العوجاء ومجموعة من الملاحدة في الحرم النبوي على المفضل بعض الأسئلة، والشكوك، فعالج الإمام ذلك السيل بكتاب يدور على إثبات وجود الله تعالى والدلائل التي تشير إليه[23].

يقوم الأمن الثقافي على خصيصة الصراع بين ثقافتين، تمثل إحداهما الأصالة، وتمثل الأخرى الطروء على تلك الأصالة أو التطفل عليها، وتهديد هويتها، ونشوء روح الحساسية بينهما، وبما أن الشعر هو المدخلية الأساسية للثقافة، وهو الوعاء الحامل لها في أهم جوابنه، فقد انجر إليه ذلك التطفل، وأصبح الشعراء يوردون بعضا من تلك الانحرافات التي تلامس العقل العربي، ولا بد من لعبة الدفاع تجاه تلك الهجمة الباردة، والطويلة الأمد، والعريضة الانتشار، وكما يبدو أن ذلك الدفاع عنه قليل الحدوث، وليس منعدما، فربما درست موجات الالحاد في شعر بعض الشعراء، والبحث عن الممارسة الثقافية/ الفكرية في الشعر العربي لم يتطبع بها النقد تطبعا بارزا بفعل سيادة المناهج النقدية التي تؤمن بالسياق، أو بالجنبة الفنية في النص، أو بالمسلك النفسي، أو الاجتماعي، وربما الأخلاقي، ناهيك عن أخر تنطلق من اللفظة والمدلول أي السيميائية، وكثير من المناهج النقدية في الفضاء الثقافي العربي والغربي. ولكي تكون الصورة واضحة فيما أدعي من توافر بعض الأفكار على الشعر العراقي التي يمكن أن توسم بالانحراف، أو التي يمكن أنت نتعامل معها بحذر ينبغي إعطاء أمثلة بارزة من ذلك الشعر، فسيتكفل المبحث الثاني بذلك.

المبحث الثاني
تجليات المحذور الفكري

مادة هذا المبحث تختلف تماما عما ذكر في المبحث السابق، ولكن ثمة روح تكاملية بينهما تعزز الرؤية التي يسير على وفقها البحث بأكمله، بعد أن يقوم على فرضية وجود الثغرة في التكوين الشعري العراقي بعدما خرج عن مساره الذي يساوي مفهوم الأدب، كما يعرفه محمد مندور: ((كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته إحساسات جمالية أو انفعالات عاطفية أو هما معا))[24]. وبهذه الرؤية للأدب يكون بعض الشعر العراقي المؤدلج، أو المتسم بطابع القول الخاص بالله وبالإيمان به، والخاص بالنبي ومدى تقديسه، والخاص بالعفة واختراقها، والخاص بتجميل الخمرة والتثقيف لها كل هذه الموضوعات تكون قد أخرجته من دائرة الوظيفة التي ينبغي أن يكون متسما بها؛ إذ إن وظيفة الأدب وظيفة ((اجتماعية وأخلاقية تتمثل في التعبير عن مطالب المجتمع، ومثله العليا، والعمل على رقي المجتمع، وتقدمه، وتهذيب النفس الإنسانية، وتوجيهها نحو الحق والخير والفضائل))[25]. وهذا لا يعني الإغراق في الخيال، والعاطفة، والابتعاد عن الواقع، ولا أريد أن ألغي الواقعية كمذهب يسود في الأدب، كلا بل ينبغي أن يكون الأدب والأديب لاسيما الشاعر واقعيا، ينهل تصوراته من الواقع، ومما ينتشر فيه، الا أن الأمنية أنه ينهل من خيره، ويترفع عن شره، وليت الشاعر كان واصفا ولم يكن كافرا أو ملحدا، وليته تعامل مع الأنثى تعاملا ساميا لا تعاملا جنسيا، يذكرها بالأير، أو يفضح كبر نهديها، وعظم كعثبها، ففي ذلك

21 ينظر: موسوعة سيرة أهل البيت الإمام علي بن أبي طالب (باقر شريف القرشي): 7/ 337- 345 و: 353- 355.
22 موسوعة سيرة أهل البيت الإمام علي بن أبي طالب: 33/ 402.
23 ينظر: موسوعة سيرة أهل البيت الإمام علي بن أبي طالب: 21/ 105 وما بعدها.
24 في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات (الدكتور فائق مصطفى والدكتور عبد الرضا علي): 20.
25 في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات: 43.

خروج عن الدائرة التي اختطت للحقيقة، وللفضيلة، وذلك مما يؤثر على الفرد، وعلى سلوكه، وذاك مما يعكس الثقافة العربية بصورتها البائسة، ولا مبرر بأن يتخلى الشعر عن هُويَّته التي تنحصر في اطراب النفس، وامتاعها وينضوي في جنبة الفلسفة، والعلم، والأدلجة، والالحاد.

ولم يكن الشاعر العراقي صاحب المحاولة البكر في تكوين هذه الأبعاد في النص الشعري، بل المسألة متجذرة بتجذر الأدب، فقد ورد في الشعر الجاهلي من ذلك كثير، ومن أشهر الأمثلة تبجح أمرؤ القيس بضرب المرضع، والحامل، وسمى ابن سلام ت231هـ هذه الظاهرة بالتعهر بقوله: ((ومنهم من كان ينعى على نفسه، ويتعهر. منهم امرؤ القيس قال

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

.....ومنهم الأعشى، قال:

ظَلِلْتُ أرعاها وظلّ يَحُوطُهَا حتى دنوتُ إذ الظلامُ دَنا لها))[26].

وقد توافرت تلك الأشعار في مساحة واسعة من الشعر العباسي، فهذا بشار بن برد يوازن بين إبليس وآدم، ويفضل الأول على الآخر مع عدم وجود الأصل في مقارنتهما، بل يأخذ يحتج بفاضلية إبليس، ويقول في قصيدة عنوانها (إبليس خير من أبيكم آدم)[27]:

إبليسُ خيرٌ من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشرَ الفجار
إبليس من نارٍ وآدمُ طينة والأرْضُ لاتَسْمُو سُمُوَّ النَّار ُ
الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النار.

وللشعراء العرب اليد الطولى في هذا المسار، ومنهم نزار قباني كقوله في موت الله عزو وجل[28]:

من أين يأتي الشعر يا قرطاجة..
والله مات وعادت الأنصاب.

وبما أن الشعر العراقي امتداد للشعر العربي، فلم تختلف صورته عنه ما دام النسق المتحكم به نسقا واحدا متغذيا من العقل المتحدي الذي يرى في القيم الدينية، والقوانين الإلهية آخر مختلفا، ومعقدا، يسير في ضوء ثنائية الخير والشر، تلك الحقيقة وذلك اللجاج ضائعان في ذلك الفضاء المتكون من الصراع بين الدنيا والآخرة، فبدأ الشعراء ينظرون إلى اللا نظرة نعم، ويسوُّقون اللا تسويقا واهما، فمن تلك اللاآت ما نسب إلى الإله، ومنها ما نسب إلى النبي، ومنها إلى الجنس، ومنها إلى الخمرة.

أولا- بالنسبة إلى الرب:

حاول بعض الشعراء موضع البحث أن يثبتوا في شعارهم أفكارا لا تنتمي إلى المنظومة العقلية بشيء، بل لا تنتمي إلى المسلك الشرعي، ولذا قدمت العقل على الشرع بقصد، فقد وجدت في أشعارهم حركات تقع خارج إطار الالوهية والتقديس، بل تتسم بالانتفاء، والكفر، والالحاد، ومن ذلك:

1- **أنسنة الرب**: ووصفه بصفات الإنسان، وهذا تعارض مع الحقيقة، فهو ليس كمثله دال ولا مدلول، ومن تلك الصفات **صفة الموت والحياة** في قصيدة بدر شاكر السياب (في المغرب العربي):

((ومتنا فية من موتى ومن أحياء
فنحن جميعنا أموات
أنا ومحمد والله)) [29].

فقد نعته السياب بالموت، ولم يكتف بذلك، بل جعله في مصاف من يتعرض للموت وهو الانسان، والنبي محمد ص مستعملا أسلوب العطف بين مفترقات ثلاثة تختلف في ذواتها، وإن كان باب التأويل مفتوحا لقراءة المسمى الله هنا، لكن ذلك يحتاج الى متلق نموذجي، وقارئ آيزري كما نحتاجه في فهم نص نصيف الناصري في

26 طبقات فحول الشعراء: 1/ 41- 42.
27 ديوان بشار بن برد: 4/ 88. وقد تحفظ المحقق على نسبة الأبيات اليه، وجعلها من وضع المناوئين لبشار بن برد.
28 الأعمال الشعرية الكاملة: 3/ 637.
29 ديوان بدر شاكر السياب: 395.

قصيدته (حضور الله في ظهيرة الكآبة) التي نسب فيها **الحضور إلى الله** في الأوقات المهمة عند الإنسان، ومنها وقت صعود الكآبة:

((أسمينا مواليدهم الجدد اللاشيء، وأسموا مواليدنا البداية والنهاية،
.....
اليوم. الفرديون يتجسد امتعاظهم من الإنسانية برأفتهم على مَن
يردفون أســـقامهم ولا يتبينون الفـــــراغ، وحضور الله في ظهيرة
الكآبة،
عفين معطى إلى المــتعالي عن طلب الاحســان يتفادى الوعي
اللجوء
إلى الظل المتسوس في لحظة الميتة المختارة))[30].

ويتحدث نصيف بأسلوب خبري متحقق الحضور والرؤية، أي توكيد حضور الله تعالى في أوقات الكآبة، وهو ينسب العزلة إلى **الله ومشاطرة الناس إليه** في قصيدته أرض عسل:

((رهط من أبناء الذوات في أقليتنا هذبناهم وجنبناهم معاشرة
الأراذل
الذي يحقرون الآلهة، وأخذنا لهم أشرف المهن (الصعلكة)
لكنهم
سايروا الكهنة وانخسفت بهم صلاتهم الخبيثة للصعلوك في
تاريخ
السعادة أرض عسل ليس باليسير تعقب الناجين من الغرق فيها،
والملك الذي يبتاع ندى الصيف بتاجه، يجبره وفاته مع ضجره
على
مشاطرة الله عزلته الجديرة بالاحترام، فأكثر الموتى في البرية
وما))[31].

فقام نصيف بجعل عزلة لله، ووصف تلك العزلة بالجدارة والاحترام، كما وصفت نازك الملائكة الرب بالكآبة وهو ضاحك، فترشح **الضحك** هنا صفة أخرى من صفات الرب في قصيدتها (صراع):

((وأضحك ضحكة رب كئيب تمرد مخلوقه الكافر))[32]

ويقترب منهم الشاعر سركون بولص في طريقة الكتابة، مستفهما عن **كيفية التفكير عند الله تعالى** في قصيدته (ولّاعة):

((أجرب الولّاعة الميتة
إنه الظلام
.....
من يعرف
كيف يفكر الله؟
أريد أن أمضي))[33].

ولدى بولص قناعة أخرى **بطرد الله للإنسان** من أماكن كما تروق له، مستعملا صيغة المضارع الدلة على الثبوت، والتجدد في طرد الله له من الحدائق كلها كلما ارتادها او قطن فيها:

((في كل لحظة

30 إرث الارتال التي تندثر بلا أمل: 43.
31 إرث الارتال التي تندثر بلا أمل: 25.
32 الأعمال الشعرية الكاملة (نازك الملائكة): 1/ 437.
33 الأعمال الشعرية الكاملة (سركون بولص): 1/ 47.

يطردني الله من حديقة))[34].

وفي سياق استعلامي آخر يستعمل مظفر النواب سؤالا عن توبة الخالق وعدم توبته في قصيدته (عروس)، ينظم ذلك بجوار استعلامات عدة، ومنها هل تاب النورس من جناحيه المكسورين، ومنها توبة الطيب في إعانة الإنسان الخاطئ، فيقول بعطف التوبة الثالثة:

((هل تاب الخالق من خمر الخلق))[35].

ولا يقتصر الشعراء على ذلك، بل يسوُّقون لنا الرب تعالى **محتاجا إلى الممكنات**، ومن تلك الممكنات الإنسان، فيقول نصيف في قصيدته (الأخبار المتضاربة):

((دونت ملاحظات سريعة وكانت هي تنظر إلى موج
الموت وتلاطمه، فعرضت عليها أن تهاجر معي
إلى بلد آخر، الصبية تزيت بزي ملاك شاب
وحملتنا إلى شعوب لا يستطيع الله الاستغناء عنها))[36]

بين أن الله لا يستطيع أن يستغني عن بعض الشعوب بأسلوب النفي بلا مع الفعل المضارع، ولم يتوقف، ويستمر نصيف الناصري في إثبات أن **الله يتعامل مع البشر**، ويتمنى لو أتاه المخبرون من لدنه ليخبرهم عن تلك الموبقات في الحياة :

((غبار الموت الساخن، لو وفد المخبرون من لدن الله
لأخبرتهم
عن رغبتي في دحض الافتراءات
التي تمجد الحروب في الأرض))[37].

أفاد من أسلوب الشرط بالأداة لو، كما أفاد من أسلوب التعليل في تماديه نصيف الناصري، **لما وصف الرب (الله) بالسارق** لميراث البشر في سياق حديثه عن التحولات التي تحدث بالحياة من جهة كثرة الإثم الذي ينظر إليه من وجهته هو وليس من وجهة نظر شرعية، وكذلك اندثار الثقافات، فنراه متشائما بقوله:

((من وجهة
نظر البعض. عضضت أكثر من ثمرة آثمة ورأيت
ثقافات تندثر
ولكي أحافظ على ميراثي من الله. أهملت مصالحي
وتبنيت اقتصاد
الدولة))[38].

ويصور سركون بولص نفسه بأنه حشرة ليس لها ردة فعل أو أي إفرازات خارجية تجاه الأخطار المحيطة به من جراء الاحتلالات التي تدمر المدن، وتشيع الخراب فيها، فيكون الإنسان حينها كما القملة وأي قملة : **(قملة الله)** في قصيدته (هولاكو يمدح نفسه):

((أنا هولاكو
بحر من الأعشاب تقطعه الخيول بصمت
سنابك نارية مطرت على ليل المدن
إنني فكرة في رأس الحجر
لسان القدر وقملة الله
الحرب عذراء في خيمة ممزقة))[39].

---

34 الأعمال الشعرية الكاملة : 1/ 67.
35 الأعمال الشعرية الكاملة (مظفر النواب): 461.
36 قصائد الحياة اليومية: 86.
37 قصائد الحياة اليومية: 63.
38 قصائد الحياة اليومية: 47- 48.
39 الأعمال الشعرية الكاملة: 1/ 73.

2- جمادية الرب: نظر بعض من الشعراء إلى الله تعالى نظرة تقدمه جمادا في شعرهم، ومنهم عبد الوهاب البياتي في قصيدته (أقوال)، ويدخل هذا في باب السخرية من الإله، وباب فساد التصورات؛ إذ إن الله يباع في الأسواق، ومشرد في الطرقات:

((الله في مدينتي يبيعه اليهود

الله في مدينتي مشرد طريد

.....

الله في مدينتي يباع في المزاد

دعارة الفكر

هنا رائجة...دعارة الأجساد))[40].

وكما عده البياتي بضاعة تباع في الأسواق عن طريق أسلوبية التكرار بوصفها دالا على توكيد الفكرة، فقد عد السياب **الإله نخلة**، فلو أحب أن يبصره، فهو يبصره على هيئة نخلة، فيقول في قصيدته (دار جدي) في بنية كلية للنص تدور على عدم تحقيق الأماني، وعدم نواله الوصول إلى ما يرغب، فينظر إلى الإله كما ينظر الشخص من أسفل النخلة إلى أعلاها:

((شراعي الغيوم

ومرفأي المحال،

وأبصر الله على هيئة نخلة، كتاج نخلة

يبيضُّ

في الظلام

أحسه يقول: يابنيَّ، يا غُلام،

وهبتك الحياة والحنان. والنجوم...))[41].

يتحدث السياب بلغة الشاك، والساخر بطريقة ارساء الجمادية على الباري تعالى، وبطريقة الانسنة مرة اخرى لما نسب الحوار اليه تجاه الشاعر او المتلقي فكان العملية الحوارية مكونة في نظر السياب من المتكلم الله تعالى والمتلقي الانسان، وهنالك الرسالة تو الموضوع المتحدث فيه وهو التمليك للحياة، والكون، والعطف او الحنان.

3- تجسيم الإله: يبدو أن فكرة التجسيم انتقلت إلى الشعر أيضا، فقد انتشرت في العصور التالية للإسلام بفعل الحمل الظاهر لمدلولات القرآن الكريم ومنها: ((يد الله فوق أيديهم))، فجاء الشعراء العراقيون في العصر الحديث لاسيما السياب، فسجل في قصيدته (أفياء جيكور) أن لله وجها باغة النفي الوارد بعد الشرط غير الجازم بلولا:

((لولاك ياجنتي الخضراء، ياداري

لم تلق أوتاري

ريحا فتنقل آهاتي وأشعاري،

لولاك ما كان وجه الله من قدري))[42].

ويحدثنا حسين مردان بلغة يائسة، وبخطاب كلي يمتهن الإهانة لمكونات الوجود كله، وبلكنة غير متوقع صدورها من الإنسان ذلك المخلوق، فيتمنى أن يراه! يرى مَن ؟ يرى الله تعالى! حتى يصرخ بوجهه، وسيتعدى ذلك الفعل إلى عبادة الشيطان من دون عبادة الله بلغة الشرط بالأداة لو:

((أدوس على الوجود وساكنيه وأبصـــــــــــق فوق سكان القبور
وأقسم لو رأيت الله يومـــــــــا صرخت بوجهه بيدي مصيري
أساطير ملفقة ودنيـــــــــــــا يكبلهـــا الزنـــــــــــا أبد العصور

40 الأعمال الشعرية الكاملة (عبد الوهاب البياتي): 516.
41 ديوان بدر شاكر السياب: 147- 148.
42 ديوان بدر شاكر السياب:189- 190. ويقول البياتي في هذا المعنى: فاسكبي روحك الحنون بروحي لأرى من صفائه وجه ربي.

دعيني أعبد الشيطان وحدي وأعبث في الحياة بلا ضمير))[43].

4- التشكيك بوجود الله: بسبب تعلق الشعراء بالدنيا، وبسبب نرجسيتهم العالية، وعدم الصبر على بلاءات الدنيا، يجزع الشاعر، ولا يكاد يطيق ما يحدث حوله، ويصل الجزع به إلى التشكيك بوجود الله، ودخول مرحلة الكفر، فيقول حسين مردان في قصيدة (براكين):

((إن يكن في السماء رب عظيم وقدير يدري بما في الصدور

فلماذا نرى التقي شقيا ونعيم الوجود للشرير))[44].

5- رفض الأسماء والصفات الإلهية: ولم يقفوا عند الإشراك بالله وعبادة الشيطان معه، ولا يكتفون بالتشكيك بوجود تعالى، بل يستمر حسين مردان بإنكار إحدى صفاته وهي (العليم)، وإنكار الصفات يعني إنكار الذات الإلهية؛ فالصفات عين الذات عندنا، فيقول في قصيدته (ميلاد شيطان):

((ولدت في ليلة رعناء باركها رب الجحيم فلم يعلم بها الله))[45].

6- موازنته مع الشيطان: وقد انزلوا الإله تعالى بمنزلة الشيطان، وأعطوهما مرتبة واحدة، والنظر اليهما محاربين متقابلين على مدى التاريخ كما يرى نصيف الناصري:

((توقفت في المتجر أنظر إلى الحيوانات المتشائبة

.....

أن تشتري بندقية فأنت تحتاج الى معرفة

سلوكها. في الحرب يتقابل الله والشيطان والخسارة

فادحة طوال التاريخ))[46].

ويبقى السؤال المهم، والملح عن نسبة هذه المقطوعات الشعرية هل تنسب إلى الالحاد- والزندقة، والكفر، والإشراك بالله تعالى؟ أم تنتسب إلى غير ذلك؟ هل يبقى المتلقي رهين الظاهر؟ أم ينطلق ليفكك، ويشرح، ويؤول تلك الأبيات؟ وإن أُوِّل ما يحتمل التأويل، فبماذا يحكم على الصريح منها؟ وعلى مَن صدر من شاعر ينتسب إلى الالحاد، ويعرف به، مثل الشاعر حسين مردان أو الشاعر نصيف الناصري!

ثانيا- الحط من شأن النبوة: وتتوافر تلك التصورات الخارجة عن دائرة الإيمان، أو عن دائرة المعقول على جدران النبوة أيضا، فلم يسلم الأنبياء من وصفهم البغيض، ومن التنكيل بهم، وعدم التقديس لهم، فقد يصف السياب في قصيدته (المومس العمياء) الأنبياء بالاندحار، وينسب العار إلى آدم ع:

((والسور يمضغهن ثم يقيئهن ركام طين:

نصبا يخلّد عار آدم واندحار الأنبياء))[47].

ثالثا- إعلاء شأن الخمرة: أي مخلوق هذا، وأي شاعر! إذ يقلل من شأن الله تعالى، ومن شأن النبوة، ويعلي شأن الخمرة، وليته اكتفى بما فعله أغلب الشعراء، واستعمل الخمرة رمزا، وذاقها من دون أن يشربها، وقالوا بأدق تفاصيلها مع تنزيه أنفسهم منها، على العكس من سعدي يوسف الذي يسرد مغامراته في البارات، ويجعلها من الأماكن التي تحدث فيها اللقاءات المحببة إلى قلبه:

((ولما التقينا على حافة البار

أخرج من جيبه زهرة وانحنى

هامسا: إنها لي أتيت بها

43 قصائد عارية: 78.
44 قصائد عارية: 80.
45 قصائد عارية: 81.
46 قصائد الحياة اليومية: 34.
47 ديوان بدر شاكر السياب: 529.

عبر أسوار (وجدة) حيث الحدود))[48].

وقد اعتاد الشعراء على مدح البارات، مدح الشراب، وتصويره بالمستقطب لجميع الطبقات حتى يصير مكتضاً بالناس، كما في قصيدة (أيام العمل السري) لسعدي أيضا:

((كنت أراقب في عينيها ما كانت تجهد أن تخفيه

.....

لكن بعد دقائق أو ساعات

سنكون بعيدين

بعيدين تماما

حتى عن ذكرى هذا البار المكتظ بأهل المسرح

هذا البار البارد

حيث تدفأنا بنبيذ

وبأيام لن استقبلها حين تعود))[49].

ويكاد يكون موفق محمد أكثرهم ولعا بها، فذكرت في مواطن كثر في اعماله، وقدم الخمر صديقا، وطريقا للنجاة كما ورد كلامه عنها في قصيدة (عبدئييل):

((مر طعم الروح

وطازجة فاكهة الموت

والخمر جميل وصديق

الخمر طريق

ديناصور أعمى يزحف فوق الروح

الخمر خيول وجروح))[50] .

رابعا- الحضور الايروسي:

من المنطلقات الرئيسة للشعر أنه تصوير للعاطفة، وتغزل بالنساء، وعن طبيعة هذا الغزل أنه يدور حول مفاتنها، وخصرها، وشعرها، وعينيها، وشفتيها، ونعومتها، ونومها للضحى، وغنجها، ودلالها، وعفتها، وهكذا مما يكون عاما، وعفيفيا، إلا أن يصل الأمر إلى ذكر الفاضح، والمحظور، والمثير للرغبة الجنسية لدى القارئ، فهذا ما يكون محل نظر، وينبغي للنقد أن يتصدى له، لاسيما إذا كان الناقد منطلقا من رؤية محافظة على قيم الكون، وقيم المجتمع، الممتدة من امتداد الإسلام، وقد ينطلق آخر من فلسفة أخرى، فيروق له ذكر الأير، والنهد، وبعض التفاصيل الأخر من عورات المرأة، بل يروق له تصوير العملية الجنسية كاملة في قصيدة، وهذه توافرت كلها على الشعر العراقي موضع البحث.

48 الأخضر بن يوسف ومشاغله: 15.
49 الأعمال الشعرية الكاملة: 6/ 150- 151.
50 الأعمال الشعرية الكاملة (موفق محمد): 66.

فقد ألف نصيف الناصري ديوانا بعنوان (النيك) فيه ما فيه من تفاصيل الايروسي، وقد ذكر الأير في أكثر من موضع ومنه في قصيدته (جلد عميرة):

(كنت في سنوات مراهقتي أحسب أن كل فتاة

.....

ترمقني بنظرة كلاسيكية فأشعر بالتفاهة وأثار

منها في الانتصابات المتكررة للأير))[51].

ويذكر نصيف تفاصيل المرأة من بظر، وأثداء، ويردفها بتفاصيل الرجل بقصيدة (ندبت حظي) كلفظة (الزب) وليته استعمل ألفاظا دالة على ذلك بأقل مما قيل، فقد كنى العرب، وكنى الشعراء عن ذلك بكنايات تدل على الحشمة، والحياء، والتعفف:

((بعد الاجهاز على قارورة العرق في كل ليلة

يكون جهازي العصبي قد تدمر كله وأحاول

الغناء حسب الطريقة الشعبية. عن ماذا أغني؟

ربما عن امرأة لا بظر لها ولا أثداء. وجبات

الطعام الخفيفة قبل الشراب، لا تساعد الزُبّ

على النعظ، والمرء يكابد طوال النهار مع

الغير في انتظامه أمام كارثة الدوام بدائرة لعمل))[52].

وقد يقص لنا حسين مردان العملية الجنسية في قصيدة كاملة مثيرة سماها (العذراء والقرد)، والملفت للنظر في هذه القصيدة أن الكناية جاءت عن الأير فقط، وكناه بالقرد:

((والليل جاء

فتكومت تحت الغطاء

عذراء يصبغها الحياء

راحت تدلك بارتخاء

قمرين في صدر بديع

وبرأس أصبعها الرفيع

مفتاح مجرى الكهرباء

فتثاءب القرد الضرير

في خسفة الخصر الصغير

فمضت تصور في الخيال

---

51 النيك:6.
52 النيك: 7.

رجلا قوي الساعدين

يحتلها في ساعتين

فتعوم في قبلاته

وتذوب في لمساته

حتى ترى عنب الجحيم

ويخض أسفلها الحنين

فتعود تمسح بارتخاء

فخذا يرنحه العياء

لتشب فيه الكهرباء))[53].

يدخل الشعر الذي أوردته في باب الالتزام الذي يتفرع إلى فروع أو إلى أنواع، ومنه الالتزام الديني، أو الالتزام الأخلاقي، أو التزام موضوع ما، كما يلتزم نصيف الناصري مبدأ، أو موضوع النيك في ديوانه كله (النيك)، وقد وردت تلك الالتزامات في الشعر العمودي، و قصيدة النثر، ووردت في قصائد كاملة وفي مقطعات، أو في بيت واحد، أو في بيتين، وقد جاءت بعض عنوانات القصائد دالة على ذلك، وبعضها جاء ضمنا في القصيدة، وقد حملت بعض أسماء الدواوين أيضا ومنها ديوان قصائد عارية، والنيك.

المبحث الثالث

الحضور النقدي الفاعل

برزت أنماط من التفكيرات في الشعر العراقي دخل بعضها في العقيدة، وبعض منها في الجانب الخلقي، وبعض منها في الجانب الديني، وفي هذه الجنبات الثلاثة وفي كل جنبة تخرج عن إطراب النفس، وتحسس الجمال، ويتولد هنا انحراف في وظيفة الشعر؛ إذ من غير الممكن أن يكون الشعر مؤدلجا، وذا فلسفة، وعلما، فهذه المقاسات مما يعتني بها علومُها، وهي الفكر الإسلامي، والفلسفة، وعلم الكلام، وعلم الأخلاق، لذا ينبغي للناقد والنقد مراقبة هذه الرؤى في الشعر، والتصدي لها، انطلاقا من نظريتين هما نظرية الشعر، ونظرية النقد، فالثاني يكمل الأول لينتجا نصا يرقى الى مصاف التأثير والإنسانية، بعيدا عن مسالك الانحراف، والأدلجة.

ولإيضاح كيفية التصدي لهذه القضايا ينبغي تشخيص تلك الأسباب التي أعانت على توافر هذه المزالق في الشعر، وأول الأسباب هو تأثر الأديب بالثقافة الرائجة، وبلغة أدق تزامن الأديب والثقافة، إذ يصدر الأديب/ الشاعر نصوصه بفعل تمازجه مع الثقافة السائدة، وليس بإمكانه تغييب تجليات تلك الثقافة، وعدم الانصياع لها في شعره[54]. وقد شاعت منذ السياب في أقل تقدير تحولات ثقافية عدة، وبدأت معايير الحداثة تدب في مفاصل العقل العربي، بل وصلت إلى الدين وقيمه المثلى للنيل منها.

53 الأرجوحة هادئة الحبال: 46- 47.
54 ينظر: في الأدب الحديث والثقافة رؤى وأبعاد (الدكتور حبيب يوسف مغنية) 302.

ولم يقتصر الأمر على البعد الثقافي فهنالك البعد العقدي، والالتزام الديني، فيقول الباحث علي هذيلي عن الشاعر الملحد: ((ولكن الشاعر المعاصر، وبسبب ضعف عقيدته، وعلمانيته، ورغبته في الثورة، والاعتراض، وبسبب ومن دون سبب؛ أباح لنفسه أن يتعامل مع اله بوصفه أحد مخلوقاته، لا بوصفه خالق الكون ومهيمنا عليه))[55].

وقد أشغلت النقاد الإسلاميين مسألة انتشار تلك الأفكار في الشعر العربي او العراقي فأخذوا يتحرون عن الأسباب الجاعلة لها، فأضيف إلى العاملين السابقين عامل التأثير والاستقبال للثقافات الوافدة، فيقول الباحث الدكتور سيد الشوربجي- باحث مصري-: ((رواده استوردوا هذه التصورات وتلك الأفكار من بيئات غريبة لا تؤمن بدين-فضلا عن محاربته- ولا تقيم وزنا للمبادئ والقيم، دون أن ينظروا في حقيقة هذه التصورات ومدى موافقتها أو مخالفتها لطبيعة بيئاتنا العربية والإسلامية))[56].

يضاف إلى تلك المسببات التي أوجدت الانحدار الثقافي في الشعر العربي والعراقي خاصة شيوع فكرتي الانعزال والمثاقفة. أي انعزال الفرد/ الشاعر عن هُويَّته والانمحاق بهُويَّة أخرى، لاسيما الهُويَّة الإسلامية على الأخص، فيتخلى عن طريق الحق، ويبدأ بمقاطعة تلك القيم، والسعي نحو الانعتاق بالتحلل، والتهتك، ويجعل الشاعر الله خصما له!!!

أما فكرة المثاقفة الاجتماعية هي الأخرى قائمة على تأثر فرد شاعر برمز فرد آخر، كما يؤمن بعض الشعراء بلينين، وأفكاره مثلا، فيتطبع ذلك الرمز في اشعارهم، او قائمة على مثاقفة حضارة بأكملها، كما في تطبع شاعر بثقافة يهودية مثلا!

والسؤال المهم هل هنالك أثر على الصعيد الإنساني من وجود هذه الأفكار الجنسية أو العقدية أو الأخلاقية في الشعر العراقي؟ وهل هنالك من مسوغ أن تنعت بالمحذورات؟

لعله يتنازع اثنان على وجودها، وتأثيرها، وعلى مدى نعتها بهذا النعت! فقد يرى أحدهم أن وجودها أمر بدهي، ومحبب، ولا يمكن القدح بها؛ لأن الشاعر ابن بيئته، وله أن يوظف تلك الأفكار في محاكاة الواقع ونقده، ولا أقول لهذه الفكرة إلا عبارة واحدة، إن هذا الناقد أو المتلقي لم ينطلق من منطلق إسلامي أو معيار ديني، الذي ينطلق منه الثاني ويرى وجود هذه الأفكار في الشعر سلخا للدين، ونقمة على الهُويَّة التي يحوطها الخطر من كل جانب، فلا ننكر أن الهُويَّة العراقية اليوم بفعل هجمات الغرب بتنوع محاورهم في خطر شديد، فمن غير المعقول ان نسمح للشعر في هذه المرحلة وفي غيرها أن يشوبه السواد منحرفا عن معدنه الأصيل أو وظيفته الأساس التي تنفي الموهبة، وتغطي على الجمال، فالمتلقي لهذه النصوص إذا أردناه أن يتفاعل مع نصية تلك النصوص سيتفاعل مع موضوعها وليس معها.

وبناء على تلك المقدمات يلتزم البحث والباحث رؤية نقدية تدعو إلى حضور النقاد الفاعلين تجاه هذه الأفكار وإن لم يمسكوا بعنان الشاعر إلا أن المسؤولية الشرعية، والإنسانية تستدعي ذلك؛ بغية الحفاظ على الهُويَّة الإسلامية، والعربية، والعراقية من خدوش الكتابة، والإمساك بخيوط الحقيقة التي تنطلق من الفكر السليم الذي لا يتعارض مع الشريعة، والذي يسعى لبناء الذات الناجحة، والمُعدة لإدارة دكة الحياة.

ولا يكون ذلك إلا بمراقبة الأفكار في النصوص الشعرية او الأدبية، تحت ما يسمى بطاولة النقد الأيديولوجي أو النقد الفكري، الذي يتأطر بالإطار الإسلامي، ويدخل في مشروع أسلمة الأدب، يقوم على محاربة السلبيات الفكرية في النص، وعرض الفكر الصائب فيه.

أما المنطلق الأساس في هذا النظر النقدي، فينطلق من البحث عن الموضوع الشامل في النص، ومن تلمس الجمالي في النصوص (شعرية النصوص)، ومراقبة مدى إسهامه في تقديم تلك الانحرافات على مستوى حضور

55 هو الذي أضاع الحكاية او النص بوصفه شكلا ناقصا: 115- 116.
56 فساد التصور في شعر الحداثة المعاصرة، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية، على موقع الوعي الإسلامي، في 2010/9/:3.

المفردة، أو التركيب، أو النص في ضوء الممازجة بين الرؤية الثقافية والأدبية في التكوين العقلي العراقي، وبالنتيجة يسعى الى تأسيس الخطاب النقدي الإسلامي الذي يؤمِّن النظام الاجتماعي، والنظام الاخلاقي، والنظام العقدي، وغير ذلك.

الهدف الأساسي من هذا النظر النقدي يلتقي بالهدف الأساسي أو بالهدف الكلي من النقد وهو تمييز الجيد من الرديء، ويضاف إليه تمييز الفكر الجيد من الفكر الرديء.

هذا اللون النقدي ليس بكرا، ولا بدعا، فقد توارد على مقولات القدماء، لكنه تناثر هنا وهناك كما أسلفت في المبحث الأول، فكان لدى القاضي عبد العزيز الجرجاني، ولدى الأصمعي، وغيرهما.

ومن تجليات الحضور النقدي الفاعل الذي يجب أن تعلو دفته، ويتحرك شراعه هو البحث عن القيم الأخلاقية، والحث عليها، ومحاربة القيم المتدنية التي لا تنتمي إلى باب الأخلاق، وهذا ما تبلور فيما يسمى بالنقد الأخلاقي القائم على بث الأفكار، والقيم الأخلاقية في النص الشعري التي دعا إليها النقاد القدماء والمحدثون، ومن أولئك ابن طبابا العلوي ت 321هـ [57]، وابن رشد ت 595هـ حين دلل على أن صناعة الشعر ترتبط بتخييل الفضائل[58].

وفي هذه الجنبة النقدية يقتضي الخروج عن الداخل نصي إلى الخارج نصي، أي الانتقال من الدوران في فلك النص إلى الدوران في فلك متعلق بالشاعر، وتكوينه الديني، والخلقي، والاجتماعي، وهذا ما نوه به ابن رشيق القيرواني 356هـ في كتابه العمدة بقوله: ((من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل، حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطئ الأكناف، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس))[59].

الذي يتبلور في الذهن من تلك الإحالة البسيطة، والتجربة الفتية في ولوج ميدان الإحصاء، والنقد لتلك النصوص الشعرية، أو لذلك الخطاب الشعري المتمرد لدى الشعراء العراقيين قر في ذهني أنهم في حالة من اليأس، والذعر، والانتحار الفكري، أو الأخلاقي بسبب خرقهم لتصورات، ومعان، وحقائق هي قارة في المسلك العقلي العربي، أو حتى غير العربي أحيانا، مما بني عليها منظومة كبرى تتعلق ببناء الإنسان انطلاقا من وجود الذات الإلهية، والعصمة النبوية، والتقديس الأخلاقي الذي يساوي الدين في إقل تقدير.

نتائج البحث

إن سبب ذلك الحضور لبعض الأفكار التي يتحفظ عليها البحث هو الوعي بالموضوع سواء أكان الله تعالى، أم النبي ص ، أم الأخلاق، ومن المنطقي أنى يكون الوعي هنا متصفا بالقلة، وتنازل بوصلته نحو الوعي لفلسفة، وثقافة أخرى تتناقض مع مساحة ذلك الوعي، وفي المحصلة سيكون الوعي المتدني مشوها، والذي يحدد مسار هذين النوعين من الوعي هو المنطلقات الأمنية، والتحرزات الثقافية التي تنتمي إلى سياج أوسع وأكبر من الأمن الثقافي، الذي يدخل ضمن مفهوم الأمن بشكل عام، ذلك الأمن الذي يضم الأمن الوطني، والأمن الاقتصادي.
يقوم الأمن الثقافي على معنى الاحتراز، والتحوط تجاه الثقافة المختصة بقوم، ومدى الحفاظ على ثقافة تلك الأمة من الخطر الوافد، الذي يهدد كيانها، وأحيانا لا يدخل في نطاق الوافد، وإنما ينطوي في طي التحدي، والفكر المضاد في البيئة نفسها.

توزعت مقولات للأمن الثقافي لدى القدماء العرب على مستويات، منها المستوى العقدي، فكان في ميلاد علم الكلام، فضلا عن تعويل النبي ص، وأهل بيته على محاربة تلك المزالق الثقافية العقدية عن طريق المناظرات، والتأليفات، والإجابات على الرسائل، والأسئلة المطروحة في هذا الشأن، والمستوى اللغوي، فجاءت الخطوة الآنية بتأليف كتب اللحن اللغوي، والفكري، وكذلك المستوى النقدي، فكان أن تنبه النقاد على وجود الانحراف الفكري.

57 ينظر: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري (الدكتور محمد بن مريسي الحارثي) 25.
58 ينظر: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري: 27.
59 كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 1/ 196.

توافرت على الشعر العراقي مساحة تدخل في باب المحذور الفكري، وقسمت على محاور الأول يخص الرب تعالى، والثاني يخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والثالث يخص الخمرة، والرابع يخص ممارسة الجنس. وقد كان السبب في تواجد هذه المحذورات هو ضعف عقيدة الشعراء، وتأثرهم بالوافد الغربي، والدخيل على الثقافة العربية من دون تمحيص، ناهيك عن تنحية الشعراء بأنفسهم عن الهويَّة الأصيلة ذات الأساس المتين المنطلق من القرآن والسنة.

وما يدخل في نطاق المعالجة بغية التخلص أو التقليل من تلكم الأفكار، وولوج ممارسة الأمن الثقافي، ولعبة الدفاع عن ثقافة المتلقي، وذوقه العام، وعدم السماح لظهور من مثل تلك الأفكار التي تمس المقدس لدى العربي ينبغي الارتكاز على منهجين نقديين – من وجهة نظر الباحث- الأول سمي بالنقد الأيديولوجي أو النقد الفكري، أي تحري الأفكار الصائبة والخائبة في النص الشعري، والآخر تفعيل مضمار النقد الأخلاقي القديم الجذور في الباحة النقدية العربية.

المصادر

(1) الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري، تأليف الدكتور محمد بن مريسي الحارثي، 1409- 1989م.
(2) إرث الارتال التي تندثر بلا أمل، نصيف الناصري، ط1، الناشر دار مخطوطات، 2014م.
(3) الأرجوحة هادئة الحبال، تأليف حسين مردان، منشورات مكتبة النصر، مطبعة الرابطة، بغداد – العراق، د.ت.
(4) الأخضر بن يوسف ومشاغله، سعدي يوسف، سلسلة المطبوعات الفنية، وزارة الإعلام مديرية الثقافة، الجمهورية العراقية، مطبعة الاديب البغدادية، بغداد- العراق، 1972.
(5) الأعمال الشعرية الكاملة، تأليف سركون بولص، ط1، منشورات المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية، عنكاوا 2011م أربيل- العراق.
(6) الأعمال الشعرية الكاملة، تأليف سعدي يوسف، الجزء السادس، ط1، منشورات الجمل، بيروت- بغداد، 2014م.
(7) الأعمال الشعرية الكاملة، تأليف عبد الوهاب البياتي، دار العودة، بيروت، 2008.
(8) الأعمال الشعرية الكاملة، تأليف مظفر النواب، دار قنبر، لندن، 1996م.
(9) الأعمال الشعرية الكاملة، تأليف موفق محمد، ط1، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد- العراق، 2016م.
(10) الأعمال الشعرية الكاملة، تأليف نازك الملائكة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002م.
(11) الأعمال الشعرية الكاملة، تأليف نزار قباني، منشورات مهندس زنجان، إيران، 2006م.
(12) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، تأليف حسن محمد مكي العاملي، ط8، مؤسسة الامام الصادق، 2013م.
(13) الأمن الثقافي العربي التحديات وآفاق المستقبل، تأليف محمود محمود النجيري، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض 1412هـ - 1991م.
(14) الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي في ظل تنامي العولمة دراسة مقارنة لحالات الجزائر- تونس- المغرب، صفية نزاري، رسالة ماجستير، كلية الحقوق/ جامعة الحاج لخضر باتنة، 2010- 2011م.
(15) الانثربولوجيا الثقافية والاجتماعية، تأليف فاروق محمد العادلي، دار الكتاب الجامعي، 1984م.
(16) التقرير العربي الثاني للتنمية الثقافية، الناشر مؤسسة الفكر العربي، ط1، 1430هـ- 2009م.
(17) تنزيه القرآن عن المطاعن، تأليف أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد ت 415هـ، دار النهضة الحديثة، بيروت- لبنان.
(18) درة الغواص في أوهام الخواص، تأليف القاسم بن علي الحريري ت516هـ، ط1، تحقيق: عرفات مطرجي، مؤسسة الرسالة الثقافية، بيروت – لبنان، 1418هـ - 1998م.

(19)دلائل الإعجاز في علم المعاني، تأليف أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ت 471هـ، ط3 ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر،ى1413هـ- 1992م.
(20)ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت- لبنان، 1971م.
(21)ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1386هـ- 1966م.
(22)طبقات فحول الشعراء، تأليف محمد بن سلّام الجُمحي ت231هـ، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر دار المدني، جدة- السعودية، مطبعة المدني المؤسسة بمصر، 1974م.
(23)فساد التصور في شعر الحداثة المعاصرة، الدكتور سيد الشوربجي، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية، على موقع الوعي الإسلامي، في 2010/9/3.
(24)في الأدب الحديث والثقافة رؤى وأبعاد، تأليف الدكتور حبيب يوسف مغنية، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان.
(25)في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، تأليف الدكتور فائق مصطفى والدكتور عبد الرضا علي، ط3، 2014م الناشر مكتبة اللغة العربية، بغداد.
(26)مفردات ألفاظ القرآن، تأليف الراغب الاصفهاني ت502، ط2، تحقيق صفوان عدنان داوودي، الناشر طليعة الثورة، قم – إيران.
(27)قصائد الحياة اليومية، نصيف الناصري، ط1، الناشر دار أدب فن للثقافة والنشر، 2016م.
(28)قصائد عارية، حسين مردان، مكتبة الأمل- بغداد.
(29)كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني 456هـ، ط2، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، 1374هـ- 1955م.
(30)مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تأليف دنيس كوش، ط1، ترجمة الدكتور منير السعيداني، منشورات المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.
(31)الموسوعة الحرة ويكيبديا.
(32)موسوعة سيرة أهل البيت الإمام علي بن أبي طالب، تأليف باقر شريف القرشي، تحقيق: مهدي باقر القرشي، مؤسسة الإمام الحسن لإحياء تراث أهل البيت، ط2، 1433هـ- 2012م.
(33)النيك ، نصيف الناصري، ديوان مخطوط.
(34)هو الذي أضاع الحكاية أو النص بوصفه شكلا ناقصا، تأليف علي حسين هذيلي، ط1، الناشر الروسم، للصحافة والنشر والتوزيع، بغداد- العراق، 1436هـ- 2015م.
(35)الوساطة بين المتنبي وخصومه، تأليف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1386هـ- 1966م.